مفهوم السنن الإلهية(الفتن) عند أهل الحديث

(ابن أبي الدنيا نموذجاً من خلال كتابه العقوبات) [1]

د. سعد الدين منصور محمد ❁

مقدمة :

جمع أهل الحديث في مصنفاتهم كثيراً من الروايات عن السنة بهذا المعنى، أي كونها منهجاً للإرادة الإلهية ، تحت مسمى (الفتن) و بيّن النبي ﷺ من خلالها بعض الحقائق المتعلقة بالنهوض الحضاري للأمم أو انحطاطها ، وكانت هذه الروايات التى رواها ابن أبى الدنيا في كتابه العقوبات جديرة بالدراسة والتحليل ، لأنها تُفَسّر الآيات المتعلقة بالسنن الإلهية .

إن همنا في هذا البحث سينصرف تحديداً إلى كيفية التوظيف والاستفادة بصورة علمية من الأحاديث التي تتعلق بالبعد الكوني لهذه اللفظة ، أعني (سنة الله). كما سيبين الباحث الأثر السلبي الذي لحق

---

[1]. الباحث مدين بالشكر أجزله للأستاذين الجليلين د. إبراهيم شوقار بكلية العلوم الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، و د. حيدر عيدروس علي، الباحث في العلوم الشرعية واستاذ الحديث وعلومه باليمن ، لما أبدياه من –مراجعة –وتعليقات لهذه الورقة حفظهما الله ونفع بعلومهما .

❁ أستاذ مشارك ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية قسم دراسات القرآن والسنة

بهذا النوع من الأحاديث النبوية لما جمعها العلماء من أهل الحديث تحت أبواب (الفتن) واختلط فيها الصحيح بالسقيم والحق بالباطل من القول ، الأمر الذي صرف الأنظار عن المضامين العلمية المهمة التي تضمنتها تلك الأحاديث. وسيتم عرض الموضوع باتخاذ ابن أبي الدنيا وكتابه "العقوبات "نموذجاً للعرض والنقاش ، متخذاً أسلوب عرضه لأسباب هلاك الأمم محاور للبحث.

أولا : من هو ابن أبي الدنيا [1] ؟

هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس، القرشي، أبو بكر بن أبي الدنيا البغدادي ، من علماء القرن الثالث الهجري (٢٠٨-٢٨١هـ) اشتهر بكثرة التأليف والتصنيف ، فقد عدّد له أهل الاهتمام بالمصنفات أكثر من مائتي كتاب ما بين مطبوع ومخطوط.

ثانياً : شيوخه :

من أشهر شيوخه :روى عن: سعيد بن سليمان سعدويه الواسطي . وسمع من : علي ابن الجعد ، وخالد بن خداش ، وعبد الله بن خيران ، صاحب المسعودي ، وطبقتهم . وقد جمع أبو الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم ، وهم خلق كثير ، فمنهم : أحمد ابن إبراهيم الدورقي ، وأحمد بن جناب ، وأحمد بن حاتم الطويل ، وأحمد بن عبدة الضبي ، وأحمد بن عمران الأخنسي، أحمد بن عيسى المصري ، وأحمد بن محمد بن

---

[1]. انظر في ذلك : ابن أبي الدنيا ، قصر الأمل ، أبو بكر محمد بن أبى الدنيا ، تحقيق : محمد رمضان يوسف ، دار ابن حزم : بيروت ط١ ١٩٩٥ ص٩، ابن أبي الدنيا ، الصبر ، تحقيق محمد رمضان يوسف ، دار ابن حزم : بيروت ط١ ١٩٩٧، ص٧-١٨ وللمزيد عن ترجمة هذا الإمام ا نظر : تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، ٨٩/١٠-٩٠ رقم ٥٢٠٩، تذكرة الحفاظ للذهبي، ٦٧٧/٢-٦٧٩، الجرح والتعديل ، لابن أبى حاتم الرازي، ١٦٣/٥،البداية والنهاية ،للحافظ أبى الفداء إسماعيل ابن كثير ، ١٢/٦ وغيرها من مصادر .

أيوب ، وأحمد بن محمد البرتي، وأحمد بن منيع ، وأحمد بن زياد سبلان ، وإبراهيم بن سعيد الجوهري ، وإبراهيم بن عبد الله الهروي ، وإبراهيم بن محمد بن عرعرة ، وإبراهيم بن أورمة ، وهو أصغر منه ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ،وإسماعيل بن إبراهيم الترجماني ، وإسماعيل القاضي ، وتأخر بعده ، وإسماعيل بن عبد الله بن زرارة الرقي ، وإسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة ، وإسماعيل بن عيسى العطار ، وبسام بن يزيد النقال ، وبشار بن موسى ، وبشر بن الوليد الكندي ، وحاجب بن الوليد ، والحارث بن سريج النقال . والحارث بن أبي أسامة ، والحكم بن موسى ، وخالد بن خداش ، وخلف بن سالم المخرمي ، وخلف بن هشام البزار ، وداود بن رشيد ، وداود بن عمرو الضبي ، والربيع بن ثعلب ، وزهير بن حرب ، وسريج بن يونس . وسعيد بن زنبور الهمداني ، وسعيد بن سليمان المخرمي الأحول ، وسعيد بن سليمان سعدويه ، وسعيد بن محمد الجرمي ، وسليمان بن أيوب صاحب البصري ، وسويد بن سعيد ، وعبد الله بن خيران ، وعبد الله بن عون الخراز،وعبد الله بن معاوية الجمحي ، وعبد الأعلى بن حماد ، وعبد الصمد بن يزيد مردويه ، وعبد العزيز بن بحر ، وعبد المتعالي بن طالب ، وأبي نصر بن عبد العزيز التمار ، وعبيد الله القواريري . وعبيد الله العيشي ، وعلي بن الجعد ، وعمار بن نصر ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وهو من قدماء شيوخه ، وكامل بن طلحة ، ومحمد بن إسماعيل بن أبي سمينة ، ومحمد بن بكار بن الريان ، ومحمد بن جعفر المدائني ، عن حمزة الزيات في

اصطناع المعروف ، ومحمد بن زياد بن الأعرابي ، ومحمد بن سعيد الكاتب ، ومحمد بن سلام الجمحي ، ومحمد بن الصباح الدولابي ، ومحمد بن الصباح الجرجرائي ، ومحمد بن عاصم ، صاحب الخان ، و حدث عن : حريز بن عثمان ، وعن كثير بن سليم ، ومحمد بن عباد المكي ،ومحمد بن عبد الواهب الحارثي ، ومحمد بن عبيد والده ، ومحمد بن عمران بن أبي ليلى الأنصاري ، ومحمد بن يونس الكديمي ، ومحمود بن الحسن الوراق ، ومحمود بن محمد بن محمود بن عدي بن ثابت بن قيس بن الخطيم الظفري ، ومنصور بن أبي مزاحم ، ومهدي بن حفص ، وموسى بن محمد بن حيان البصري ، والنضر بن طاهر البصري ، ونعيم بن الهيصم ، وهارون بن معروف ، والهيثم بن خارجة ، ويحيى بن أيوب العابد ، ويحيى بن درست القرشي ، ويحيى بن عبد الحميد الحماني ، ويحيى بن عبدويه ، صاحب شعبة ، ويحيى بن يوسف الزمي ،وأبو بلال الأشعري مرداس ، وأبو عبيدة بن فضيل بن عياض ،ويروي عن خلق كثير لا يعرفون ، وعن طائفة من المتأخرين ، كيحيى بن أبي طالب ، وأبي قلابة الرقاشي ، وأبي حاتم الرازي ، ومحمد بن إسماعيل الترمذي ، وعباس الدوري .

ثالثاً- تلاميذه :

من أشهرهم الحارث بن أبي أسامة ، أحد شيوخه ، وابن أبي حاتم ، وأحمد بن محمد اللنباني وأبو بكر أحمد بن سلمان النجاد ، والحسين بن صفوان البرذعي . وأحمد بن خزيمة ، وأبو جعفر عبد الله بن برية الهاشمي

، وأبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي ، وعيسى بن محمد الطوماري ، وأبو علي أحمد بن محمد الصحاف ، وأبو العباس بن عقدة ، وأبو سهل بن زياد ، وأحمد بن مروان الدينوري ، وعثمان بن محمد الذهبي ، وعلي بن الفرج بن أبي روح ، وإبراهيم بن موسى بن جميل الأندلسي ، وإبراهيم بن عثمان الخشاب ، وإبراهيم بن عبد الله بن الجنيد- ومات قبله- وأبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي ، وابن أبي حاتم . وعبد الرحمن بن حمدان الجلاب ، ومحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الصفار ، وأبو بشير الدولابي ، وأبو جعفر بن البختري ، ومحمد بن أحمد بن خنب البخاري ، وابن المرزبان ، ومحمد بن خلف وكيع ، وقد روى عنه ابن ماجه في تفسيره ،.وآخرون

رابعاً- أقوال أهل العلم فيه :

قال ابن أبي حاتم : كتبت عنه مع أبي ، وقال أبي : هو صدوق ،وقال الخطيب : كان يؤدب غير واحد من أولاد الخلفاء . وقال غيره : كان ابن أبي الدنيا إذا جالس أحدا، إن شاء أضحكه ، وإن شاء أبكاه في آن واحد ، لتوسعه في العلم والأخبار . قال عنه الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية: " المشهور بالتصانيف الكثيرة، النافعة، الشائعة، الذائعة في الرقائق وغيرها، وكان صدوقاً، حافظاً، ذا مروءة ، صاحب التصانيف السائرة من موالي بني أمية.

خامساً- تصانيفه :

فقد عدد له أهل الاهتمام بالمصنفات أكثر من مائتي كتاب ما بين مطبوع ومخطوط، وهذه بعض المطبوعات منها :

١. العزلة والانفراد ، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان ، دار الوطن – الرياض .
٢. الإخلاص والنية ، تحقيق إياد خالد الطباع ، دار البشائر – دمشق.
٣. الجوع ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم – بيروت.
٤. المحتضرين ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم – بيروت.
٥. الصبر والثواب عليه ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم – بيروت .
٦. صفة النار، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم – بيروت
٧. . الصمت وآداب اللسان ، تحقيق أبي إسحاق الجويني ، دار الكتاب العربي – بيروت .
٨. الأولياء، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت.
٩. المطر والرعد والبرق والريح ، تحقيق طارق محمد سكلوع العمودي ، دار ابن الجوزي الدمام .

١٠. العقوبات ، تحقيق: محمد خير رمضان ، دار ابن حزم (بيروت ١٩٩٦).

ويمكن ترتيب مصنفاته على المعجم هكذا : كتاب الأدب ، اصطناع المعروف ، الأشراف ، إصلاح المال،الأنواء،أخبار الملوك،الأخلاق،الإخوان، الانفراد ، أخبار الثوري،الألوية،الأولياء،الأمر بالمعروف،الألحان،الأحزان،أخبار أويس،أخبار معاوية، الأضحية،الإخلاص،الأيام والليالي،أهوال القيامة،أعلام النبوة،إنزال الحاجة بالله،أخبار قريش،أخبار الأعراب ،إعطاء السائل،انقلاب الزمان،أعقاب السرور، والأحزان والبكاء . التوبة،التهجد،التفكر والاعتبار،التعازي،تاريخ الخلفاء،التاريخ،تغير الإخوان،تغيير الزمان ، التقوى ، تعبير الرؤيا ، التوكل ،الجوع،الجهاد،الجفاة عند الموت،الجيران ،حسن الظن ، الحذر والشفقة ، حلم الحكماء ، الحلم ، حلم الأحنف ، حروف حلف ، الحوائج،الخلفاء،الخافقين،الخمول،الخبز الخاتم، دلائل النبوة ،الدين والوفاء ، الدعاء،ذم الدنيا ، ذم الشهوات ، ذم المسكر ، ذم البغي، ذم الغيبة، ذم الحسد ، ذم الفقر ، ذم الرياء ، ذم الربا، ذم الضحك ، ذم البخل ، الذكر،الرهبان،الرخصة في السماع ، الرمي ، الرهائن، الرضا ، الرقة ،الزهد ، الزفير،السنة ، السخاء ، الشكر ، التشيب ، شرف الفقر، الصمت ، الصدقة ، صدقة الفطر، الصبر ،صفة الجنة،صفة النار ، صفة النبي - صلى الله عليه وسلم ، الصلاة على النبي- صلى الله عليه

وسلم،الطبقات ،العزلة ، العزاء ، عقوبة الأنبياء ، العقل،العوائد ، العقوبات، _وهو الكتاب الذى تعرضنا له في هذا المقال _ العيال ، العباد ، العوذ، العيدين ، العلم،عاشوراء،العفو ، عطاء السائل ، العمر والشباب،فضل العباس ، الفتوى ، الفرج بعد الشدة ، فضل العشرة ، فضل رمضان ، فضائل عليّ ، فضل لا إله إلا الله ، الفوائد ، الفنون، فضائل القرآن القصاص ، قضاء الحوائج ، قصر الأمل، قِرى الضيف ، القبور ، القناعة ،كرامات الأولياء،المدارة،من عاش بعد الموت،المحتضرين ، المرض والكفارات ،الموت،المتمنين،مكائدالشيطان،المطر،المنامات،مقتل علي،مقتل عثمان،مقتل الحسين ، مقتل طلحة،مقتل الزبير،مقتل ابن الزبير،مقتل ابن جبير،كتاب المروءة،المجوس،معارض الكلام،المملوكين،المغازي،المنتظم،المناسك،مكارم الأخلاق،مجابي الدعوة ، محاسبة النفس ، المعيشة ،النوادر ، النوازع،الهم والحزن ،الهدايا، الورع ، الوصايا ، الوقف والابتداء ، الوجل ، اليقين[1]

١. راجع مقدمة كتاب " العقوبات " تحقيق: محمد خير رمضان ، دار ابن حزم (بيروت ١٩٩٦) ط١.ص٨.

مدخل:

إن من أهم المفاهيم المعروفة الشائعة في الفكر الإسلامي لفظة (سنة) التي ارتبطت بمنهج النبي ﷺ وطريقته في بيان الشريعة والمنهاج الإلهيين. ثم تطور عبر التاريخ الإسلامي مفهوم هذه اللفظة، لتأخذ معانيها الاصطلاحية عند تيارات الفكر الإسلامي المختلفة من الأصوليين ،والفقهاء، وأهل الحديث. وقد أخذت كلمة (سنة) بُعدها الكوني عندما أضافها القرآن الكريم إلى الذات الإلهية (سنة الله) ،رغم أن هذا البُعد لم يحظ إلا بالقليل من اهتمام الباحثين.

إن همنا في هذا البحث سينصرف تحديداً إلى كيفية التوظيف والاستفادة بصورة علمية من الأحاديث التي تتعلق بالبعد الكوني لهذه اللفظة ، أعني (سنة الله). كما سيبين الباحث الأثر السلبي الذي لحق بهذا النوع من الأحاديث النبوية لما جمعها العلماء من أهل الحديث تحت أبواب (الفتن) واختلط فيها الصحيح بالسقيم والحق بالباطل من القول ، الأمر الذي صرف الأنظار عن المضامين العلمية المهمة التي تضمنتها تلك الأحاديث. وسيتم عرض الموضوع باتخاذ ابن أبي الدنيا وكتابه " العقوبات" نموذجاً للعرض والنقاش ، متخذاً أسلوب عرضه لأسباب هلاك الأمم محاور للبحث.

ويهدف البحث من مناقشة هذا الموضوع إلى تحقيق غايتين:

الغاية الأولى: بيان أن الحديث النبوي الصحيح يدعم البعد الكوني لمفهوم(السنة) الذي جاء به القرآن الكريم من خلال مستويين:

مستوى المنهج النبوي العملي ، أي من خلال سلوكه وممارساته ﷺ الواقعية تجاه الحقائق الكونية. كتحريمه كل المناهج الباطلة التي تعيق البحث العلمي وتقف حائلاً دون إدراك المنهج العلمي الصحيح، مثل السحر والشعوذ والطيرة وتفسير الظواهر بطرق خاطئة بإضافتها إلي غير أسبابها الحقيقية كما في واقعة كسوف الشمس في يوم وفاة ابنه إبراهيم.

والمستوى الثاني: تقرير حقائق تتعلق بنظم المجتمع البشري قولاً من حيث بيان أسباب نهوض الأمم ورقيها أو انهيار الحضارات واضمحلالها. وهذا المستوى الأخير هو موضع اهتمام هذا البحث.

الغاية الثانية: بيان الأثر السيئ الذي لحق بأفهام الناس مما أضيف إلى السنة النبوية كمصدر للمعرفة بصفة عامة والأحاديث المتعلقة بالسنن الكونية بصفة خاصة ، من جراء روايات واهية تتعلق بالعلوم الكونية والاجتماعية اُقتبستْ من أهل الكتاب ووضعت إلي جانب الروايات الصحيحة تحت أبواب (الفتن).

إذن في سبيل تحقيق هاتين الغايتين يتخذ الباحث أسباب اضمحلال الحضارات وأسباب هلاك الأمم كما يعرضها ابن أبي الدنيا محاور للبحث ، ويسلك في ذلك منهج العرض والتحليل نحو النتائج العامة للبحث وتوصياته. ولكن قبل ذلك لابد من الوقوف قليلاً مع كلمة (سنة) ذاتها.

السنة: معناها ومضمونها :

إن لفظ (سنة) في لسان العرب، يعنى :مطلق السيرة والطريقة المتبعة[1]، أي نمط مُنظم للتصرف بغض النظر عن كونه موصوفاً بالحسن أو القبح، أو الحمد أو الذم . بمعنى أن هذه اللفظة من حيث استخدامها اللغوي ، بخلاف الحال في استخدامها الشرعي ، لا تتضمن معاني أخلاقية وإنما تعبر عن مجرد العمل المطرد المنتظم. ولهذا قال النبي ﷺ:(مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[2].

فالحديث بيّن المقصود بالسنة وأعطى المعنى اللغوي مفهوماً شرعياً ، وذلك بإضافة هذين الوصفين إليها فباتت إحدى الطريقتين حسنة بإعطاء الشارع لها هذا الوصف ، وباتت الأخرى سيئة ، ثم رتب جزاءً على كل منهما. والجزاء نفسهُ سنةٌ لأنه يطرد مع هذين الوصفين ، أعني"

١- ذهب ابن منظور (ت٧١١هـ) جمال الدين محمد بن مكرم ، في (لسان العرب) في مادة (سنن) إلى أن الأصل فيها الطريقة والسيرة. وقال صاحب مختار الصحاح (ج١/١٣٣): السُنن: الطريقة، يقال: استقام فلان على سنن واحد، وامض على سُننك وسَننك أي على وجهك، وتنح عن سُنن الطريق، وسَننه وسِننه، ثلاث لغات والسنة: السيرة) وهكذا ذهب أكثرهم إلى أن السنة: هي الطريقة والسيرة محمودة كانت أو مذمومة .

٢. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، كتاب العلم (دار إحياء التراث العربي – ---بيروت) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي٢/٤٠٧

الحسنة والسيئة " على حسب منطوق الحديث ، لكنه سنة بالمعنى الشرعي لا اللغوي. وقول النبي ﷺ " عُمل بها بعده " إشارة إلى أهم خاصية في هذا الأمر وهو صفة "الاطراد" اقتداء بمن عمل به ، والتي بها تأخذ السنة مفهوم الطريقة ويتجاوز العمل نطاق الفرد إلى المجتمع ويصبح سلوكاً متبعاً مطرداً لمجموعة من الناس أو الأمم ، وليس لفرد منهم. فلولا هذه الصفة لبات التصرف مجرد عادة فردية محدودة الجزاء [1].

هذا من حيث اللغة ، أما في الفكر الإسلامي فقد تباين معنى السنة وفقاً لأهل الفنون المختلفة ، فهي عند الأصوليين كما قال ابن منظور:(وإذا أطلقت السنة في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبيﷺ ونهى عنه، وندب إليه، قولاً، وفعلاً ،مما لم ينطق به الكتاب العزيز ،ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب والسنة أي القرآن والحديث).[1]

وقصد ابن منظور بالشرع هنا اصطلاح علماء أصول الفقه الذين ينظرون إلى السنة من زاوية أدلة الأحكام وباعتبارها مصدراً للتشريع بجانب القرآن الكريم ، وذهبوا إلى أن السنة هي كل ما جاء عن النبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير. ويقصدون بذلك أن هذه الأمور الثلاثة هي الدالة على طريقته ﷺ ومنهجه في بيان وتنزيل أحكام الدين.[2]

---

١ –ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ج٢٢٥/١٣.

٢ –قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحديث النبوي هو عند الإطلاق ينصرف إلى ما حدث به عنه ﷺ ، بعد النبوة ، من قوله وفعله واقراره فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة . فما قاله إن كان خبراً وجب تصديقه به ، وإن كان تشريعاً ، إيجاباً أو تحريماً أو إباحة وجب اتباعه فيه .(مجموع الفتاوي) مج١٨/٦–٧).

أما السنة عند أهل الحديث فتضاف إلى جانب ما ذكره الأصوليون أمرين آخرين هما: صفاته وسيرته ﷺ. فمعنى السنة عندهم هى: كل ما جاء عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خِلقية، أو خُلقية. أما الفقهاء فيقصرون معنى السنة على ما قابل الفرض أو الواجب من الأحكام، ويقولون إنها: ما يُحمد فاعله، ولا يُذم تاركه ، كالمندوب والمستحب[1] وهو أخصّ من كل تلك المعاني السابقة[2].

وبالجملة فإن المعنى اللفظي للسنة كما وردت في روايات صحيحة عنه، ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم، ينصرف إلى جملة المنهج النبوي الشريف ، أي طريقته التي كان يتحرّاها في تنزيل ما جاء به القرآن على أرض الواقع[3].

والتعريف المختار لسنة الله هو : يلاحظ أن معنى كلمة سنة يدور حول (الطريقة المتبعة) فيكون معنى سنة الله ، هي الطريقة المتبعة في

١- راجع: عبد الخالق ، عبد الغني ، حجية السنة ، دار القرآن الكريم (بيروت ١٩٨٦) ط١، ص٤٥-٨٤. وقارن: القرضاوي ، يوسف ، المدخل لدراسة السنة النبوية ، مكتبة وهبة (القاهرة ١٩٩٢م) ط٣، ص١٢.

٢ -راجع ملخصاً لهذه الأفكار وتفصيلاً أوفى لمعنى السنة: السنن الإلهية في القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه – غير منشورة -إبراهيم شوقار من الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا ٢٠٠٣.

٣ -الأصفهاني ، الراغب ، مفردات غريب القرآن .-دار المعرفة (بيروت-بدون تاريخ). مادة (سن).

معاملة الله تعالى للبشر على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه ، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة .[1] أما من حيث المضمون، فإن معنى هذه اللفظة قد اتخذ بُعداً كونياً، بإضافة القرآن لها إلى ذي العزة والجلال في مثل قوله تعالى:﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾[2] فالقرآن هنا شخصّ الحالة ووصفها بأنها سنة الله ، مما يؤكد أنها حقاً كذلك ورفع عن الناس عناء البحث عنها ، وهي بخلاف الحالات التي يشير فيها القرآن إلى المبدأ العام ،ثم يرشد الناس إلى السير والنظر والتأمل في تلك السنن للاعتبار بها ، كقوله تعالى:﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[3]

٥- دور الحديث النبوي في بيان السنن الإلهية

جمع أهل الحديث في مصنفاتهم كثيراً من الروايات عن السنة بهذا المعنى، أي كونها منهجاً للإرادة الإلهية ، تحت مسمى (الفتن)و بيّن النبي ﷺ من خلالها بعض الحقائق المتعلقة بالنهوض الحضاري للأمم أو

١- راجع زيدان ، عبد الكريم زيدان ،السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية،(مؤسسة الرسالة بيروت بدون تاريخ).ص١٣

٢- غافر :٨٥

٣-آل عمران:١٣٧

انحطاطها. وكانت هذه الروايات جديرة بالدراسة والتحليل ، لأنها تُفَسّر الآيات المتعلقة بالسنن الإلهية ، ولكن هناك عاملان أثرا سلباً في هذا الأمر:

العامل الأول: أن الآيات المتعلقة بالسنن الإلهية نفسها لما باتت موضوعاً للمناقشات العقدية العقيمة التي جرت بين الفرق الإسلامية فقدت دورها العلمي الحيوي ،ولم تجد ما يستحقها من الاهتمام والدراسة التي تبين أهميتها في نهضة الأمة. وبنفس القدر فقدت الروايات المفسرة لمثل هذه الآيات دورها المعرفي تبعاً فلم تجد ما هو جدير بها من العناية والدرس والتحليل ، وهو الجانب الذي ينبغي أن يستدركه علماء الأمة المعاصرون.

العامل الثاني: اختلاط هذه المرويات بالدخيل من الروايات المنقولة عن أهل الكتاب ، مما ألقى ظلالاً من الشك حول كل الروايات في هذا الشأن. الأمر الذي يُلقي على عاتق المتخصصين في الحديث النبوي مزيداً من العبء للنظر والتمحيص في سبيل الاستفادة من هذه المرويات رغم الجهود الكبيرة التي قام بها الأقدمون في هذا الشأن من نقد الأسانيد والمتون .

جمع ابن أبي الدنيا بعض هذه المرويات في كتاب حافل أطلق عليه على خلاف المعهود في تلك العصور المبكرة اسم" العقوبات". وكأنه يقصد بذلك السنن المطردة التي ذكرها القرآن الكريم ، في قيام الحضارات وزوالها. وتظهر أهمية الكتاب ، إلى جانب قيمته التاريخية التي ترجع إلى

القرن الثالث الهجري ، من الموضوع الذي اختار المصنف معالجته وجمع من أجله تلك المرويات تحت عنوان " العقوبات". ولا يقصد بذلك العقوبات الجنائية الفقهية وإنما الجزاء الإلهي العاجل الذي ينزل بالأمم والجماعات في الحياة الدنيا .

وقد تعرض ابن أبي الدنيا في هذا الكتاب لقضايا مختلفة كان جامعها الأساس كونها ذات تعلق بالجانب الحضاري للأمم والمجتمعات البشرية. ولكن أهمها هي تلك الروايات المتعلقة بأسباب قيام الحضارات وزوالها ، مثل ارتباط تغيير حال الأمة الحضاري بقدرتها على تغيير سلوكها المتمثل في إشاعة قيم العدل الاجتماعي والمساواة ورعاية الحقوق والعهود ، والكف عن الظلم والتصدي للظلمة بالنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها .

وأهم جانب ينبغي ملاحظته في المرويات التي استعرضها ابن أبي الدنيا في كتابه هو تركيبها اللغوي أو الصيغة التي صيغ بها الحديث. فهي تعبّر كما هو الشأن في الآيات القرآنية المتعلقة بالسنن الإلهية عن وقائع مطردة في المجتمع البشري يرتبط فيها العمل بالجزاء في أكثر الأحوال. وقد وصف القرآن الجزاء العاجل الذي يحيق بالأمم جراء تصرفاتها على خلاف مقتضى سنن الله الشرعية بـ(الهلاك) ، وعدد له أسباباً إلى جانب ذكر وسائل الإهلاك نفسها عظة وعبرة للناس.

ونحن نعتبر أسباب هلاك الأمم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم أسباباً لاضمحلال الحضارات وزوالها في ظل الرسالة الخاتمة ، وبالتالي سنتعرض لها بالتفصيل من خلال كتاب "العقوبات" لابن أبي الدنيا.

وارتكاب المحرمات يستوجب العقوبة ، ولكن رحمة الله تعالى تقتضي تأجيل العقاب إلى الآخرة ، حتى ينتهى عن الحرام ويتركه ، ومنهاج القرآن الكريم في العقوبات يتمثل في قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾[1] أى أن العدل يقتضي تعجيل العقوبة ، ولكن رحمة الله اقتضت تأجيل العقاب إلى الآخرة ، والعقاب إما فردي أو جماعي .[2]

ولكن قبل ذلك نقدم ملخصاً لأصناف العقوبات نفسها التي حاقت بالأمم السالفة وأوردها القرآن لتحقيق العظة والعبرة.

٦- العقوبات التي حاقت بالأمم السالفة :

نصّ القرآن الكريم على وسائل عديدة لإهلاك الأمم غايتها تحقيق العظة والعبرة ، واعتبر ذلك سنة إلاهية ثابتة جزاء لكل أمة تنهج نفس المهنج. وأهم جانب ينبغي تأكيده هنا هو أن الله تعالى أخبرنا في القرآن أن ما وقع للأمم السابقة من عقوبات إنما هي سنة مطردة عبر التاريخ

---

١ . الكهف :٥٨

٢-انظر في ذلك الزحيلي ، وهبة ، المحرمات وأثرها السئ على المجتمع ،(دار المكتب يدمشق) ط١ ، سنة ١٩٩٩م ص١٣

البشري، وإن اختلفت كيفيتها فإن حقيقتها ثابتة تحل بكل أمة تستنكف عن سنن الشرع وتتخلف عن مقتضى سنن الله الكونية. وبالتالي ليس من الحكمة تجاهل هذه العقوبات بحجة أنها خاصة بأمم سابقة وأن أمة الإسلام لا يحل بها عقاب مادي عاجل ! لأن العقاب الإلهي المادي ليس بالضرورة أن يكون من السماء مباشرة ، بل قد يقع بأيدي الناس:﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ(١٤)﴾ [١] . فكأن الأمة الآن تتعذب بأيدي الكافرين أي قوى الاستكبار العالمي، كما هو ظاهر من خلال الحروب التي أشعلت في العالم الإسلامي كحرب الخليج وحرب العراق وحرب أفغانستان وغيرها .

وقد جمع القرآن الكريم بعض هذه العقوبات في قوله تعالى:﴿ فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [٢].

وباستقراء عام للقرآن الكريم يمكن تلخيص جملة هذه العقوبات التي حلّت بالأمم السالفة في ثمانية أصناف كما يلي[٣]:

١- التوبة :١٤

٢- العنكبوت:٤٠

٣- راجع تفصيل أوفى لأنواع العقوبات وأسبابها كتاب (أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم) لمؤلفه سعيد محمد بابا سيلا ، طبع مجلة الحكمة ، بريطانيا (ليدز ٢٠٠٠) ط١. والكتاب رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.ص٣٥

أولاً: الإهلاك بالغرق :

ذكر القرآن أن الغرق عقوبة إلهية أهلك الله به أمتين من أعتى الأمم وأكثرها تجبراً واستكباراً في الأرض ، هما قوم نوح، وفرعون وقومه. أما قوم نوح فكان هلاكهم بالطوفان ، إذ قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(١٤) ﴾[1].

والطوفان ،كما ذكر صاحب " المفردات " هو كل حادثة تحيط بالإنسان ولكنه صار متعارفاً عليه في الماء المُغْرِق المتناهي في الكثرة ، سواء كان مطراً أو سيلاً[2]. وهذا الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح لم يكن من قبيل الفيضانات التي تحدث من وقت لآخر في مختلف بقاع الأرض ، بل كان عذاباً عاماً أعده الله لاستئصال هؤلاء القوم الذي تصدوا لدعوة الحق ووقفوا دونها بالإعراض عنها لما يقرب من ألف عام وفيهم نبي مرسل !

أما فرعون وقومه فقد أغرقهم الله في البحر وكانوا قد خرجوا في إثر دعوة الحق متمثلة في موسى وقومه للقضاء عليها. ولما كانت سنة الله قد قضت بأن دعوة الله لا يمكن استئصالها من الأرض:﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا

١- العنكبوت:١٤

٢ -الأصفهاني ، الراغب ، المفردات في غريب القرآن ، مصدر سابق ص٣١٢.

وَرُسُلِي (٢١) ﴾[١]، كانت العناية الإلهية فحدثت معجزة انفلاق البحر ونجاة حملة الدعوة والرسالة الإلهية وغرق أهل الاستكبار والتجبر في الأرض.

وقد أورد ابن أبى الدنيا آثاراً في ذلك منها[٢] : حدثنا عبد الله قال : حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني قال : حدثنا هارون بن موسى قال : حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي قال : لما قال فرعون لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[٣] نشر جبريل أجنحة العذاب غضبا لله تعالى فأوحى الله تعالى إليه أن يا جبريل إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت قال : فأمهله تعالى بعد هذه المقالة أربعين عاما حتى قال : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى﴾[٤] فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى﴾[٥] قوله الأول وقوله الآخر ثم أغرقه الله تعالى وجنوده ، ومنها حدثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن رجاء بن السندي قال : حدثنا النضر بن شميل قال : حدثنا شعبة قال : حدثني عدي بن ثابت قال : سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : (جعل جبريل عليه السلام يدس الطين في فرعون من أجل قوله : لا إله إلا

١- المجادلة :٢١
٢- العقوبات،ص١٦٤
٣- القصص : ٣٨
٤- النازعات : ٢٤
٥- النازعات : ٢٥

الله ! ومنها ايضاً قوله: حدثنا عبد الله قال : حدثنا عبيد الله بن سعد القرشي قال : حدثنا عمي قال : حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق قال : حدثني محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي قال : لقد ذكر لي أن فرعون خرج في طلب موسى عليه السلام على سبعين ألفا من دهم الخيل سوى ما في جنده من شبه الخيل قال ابن إسحاق : وخرج موسى ببني إسرائيل حتى إذا قابله البحر لم يكن له عنه منصرف طلع فرعون في جنوده من خلفهم ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] للنجاة قد وعدني ذلك ولا خلف لموعوده فأوحى الله تعالى إلى البحر : إذا ضربك موسى بالعصاة فانفلق ،قال : فبات البحر يضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظار ما أمر به وأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[2] فضربه بها وفيها سلطان الله تعالى الذي أعطاه ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[3] عن يبس من الأرض يقول الله تعالى لموسى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى ﴾[4] فلما شق له البحر عن طريق قاعة يبس تلا موسى ببني إسرائيل فاتبعه فرعون وجنوده .

١- الشعراء : ٦٢
٢- الأعراف : ١٦٠
٣- الشعراء : ٦٣
٤- طه : ٧٧

ثانياً : الإهلاك بالريح :

وقد أهلك الله بالريح عادا قوم هود الذين ذكر القرآن سبب هلاكهم بقوله:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً(١٥)﴾ [١] وقد نسي هؤلاء القوم ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ منهم قوة(١٥) ﴾ [٢].

وقد وصف القرآن هذه الريح التي أهلك بها هؤلاء القوم بقوله تعالى:﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾[٣]. وقال تعالى:﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [٤] (الحاقة). والصرصر هي الشديدة الهبوب مع شدة بردها. وقال تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾[٥]

وقد جاء عن ابن أبى الدنيا :- حدثنا عبد الله قال : وحدثنا الحسين بن علي بن العجلي قال : حدثنا عمرو بن محمد قال : حدثنا

١ – فصلت :١٥

٢_ فصلت:١٥

٣_ الذاريات :٤٢

٤_ الحاقة :٦.

٥_ الأحقاف:٢٤

أسباط بن نصر عن السدي قال : كان قوم عاد من أهل اليمن كانوا بأحقاف - والأحقاف : الرمال - فأتاهم فدعاهم وذكرهم بما قص الله عليك في القرآن فكذبوه وكفروا وسألوا أن يأتيهم بالعذاب فقال لهم : إنما العلم عند الله وأصابهم حين كفروا قحط من المطر فجهدوا جهدًا شديدًا فدعا عليهم هود عليه السلام فبعث الله عليهم الريح العقيم التي لا تلقح فلما نظروا إليها ﴿ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] فلما دنت منهم نظروا إلى الرحال والإبل تطير بهم الريح بين السماء والأرض فلما رأوها تبادروا البيوت فلما دخلوا البيوت دخلت عليهم فأهلكتهم فيها ثم أخرجتهم من البيوت فأصابتهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾[2] النحس : الشؤم والمستمر : استمر عليهم العذاب ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾[3] قال : حسمت كل شيء مرت به ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[4] : انقعر من أصوله فلما أهلكهم الله وأخرجتهم من البيوت، أرسل الله عليهم طيرا أسود فنقلتهم إلى البحر

١- الأحقاف : ٢٤
٢- القمر : ١٩
٣- الحاقة : ٧
٤- الحاقة : ٧

وألقتهم فيه فذلك قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [1]

ثالثاً: الإهلاك بالصيحة :

الصيحة هي الصوت الشديد المرتفع ،كصوت الرعد ، أو ما يحدثه في هذا العصر من القنابل أو الطائرات العملاقة من دوي الصوت. وقد أهلك الله بالصيحة أربعا من الأمم السالفة وهي **ثمود** إذ قال الله تعالى فيهم:﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾[2]. ويبدو أن هذه الصيحة كانت مصحوبة بالصعق ، فقال تعالى:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] .

وممن أخذتهم الصيحة قوم **شعيب** ، قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتْ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [4]

وقد روى ابن أبي الدنيا رحمه الله في ذلك قوله[5] : حدثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن عباد بن موسى قال : حدثنا حماد بن أسامة عن

---

١ -انظر :العقوبات ،ص٨٥-٨٦

٢_ الحجر:٨٣

٣- فصلت :١٧

٤- فصلت :١٧

٥-العقوبات ،ص١٢٤-١٢٥

بشير بن عقبة الناجي قال حدثنا أن نضرة العبدي قال : حدثنا رجل من الصدر الأول قال : كان قوم شعيب يقبلون على الكدية- وهي حرفة _فما فوقها فكانوا إذ يصنعون ذلك عيشهم في شدة حتى أصاب بعض ملوكهم دنيا، فعطل فيه الحد، حتى تحابوا بالخمر نهارا جهارا في المجالس قال : فبسط الله تعالى لهم في الرزق عند ذلك، حتى قال قائلهم : لو سعرناه كنا قد عطلناه منذ زمان، فلما أراد الله تعالى عقوبتهم بعث الله تعالى عليهم حرا شديدا فلم ينفعهم نبت ولا ظل ولا شيء فانطلقوا يريدون الروح والبرد فدخل رجل منهم الظلة فوجدها باردة فنادى في الناس : البرد البرد فلما تناموا قذفها الله تعالى عليهم بالعذاب فذلك قوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1]

وممن أهلكوا بالصيحة أيضاً قوم لوط إذ ختم الله قصتهم في سورة الحجر بقوله تعالى:﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) ﴾[2] ، ولكن يبدو أن الله تعالى قد أخذ قوم **لوط** لشناعة فعلتهم، حيث إنهم كانوا يأتون الرجال شهوة دون النساء ، فعذبهم بأصناف متعددة من العذاب في وقت واحد ، إذ تذكر بعض الآيات أنهم رجموا بالحجارة كما في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ

١- الشعراء : ١٨٩

٢- الحجر:٧٣

مَنْضُودٍ (٨٢) ﴾[1] وقد ذكر القرآن من الذين أهلكوا بالصيحة أصحاب القرية ، فقال تعالى:﴿ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)﴾[2].

رابعاً: الإهلاك بالرجفة

الرجفة هي الزلزلة الشديدة التي يصحبها ارتعاد واضطراب ، وقد أهلك الله بهذه العقوبة أمتين هما: ثمود وقوم شعيب. فبيد أن الله تعالى قد ذكر بأن هاتين أمتين قد أخذتهما الصيحة ، إلا أنه تعالى ذكر في آيات أخرى أنهما أخذتهما الرجفة ، مما يدل على أن الله جمع في حقهما أصنافاً متعددة من العذاب.

وقد تكون الرجفة نتيجة طبيعية للصيحة ، لذلك ختم قصة كل من هاتين الأمتين بقوله تعالى:﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) ﴾[3].أما قوم موسى عليه السلام ، وإن أصابتهم الرجفة فلم تفض إلى هلاكهم بسبب دعاء موسى ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلا

١- هود:٨٢

٢- يس:٢٩

٣-الأعراف:٧٨

فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥) ﴾[١] .

خامساً: الإهلاك بالصاعقة

فسر السابقون الصاعقة بالنار من السحاب والصوت المصاحب لها[٢]، وقد اتضح أمرها الآن بصورة جلية باكتشاف القوة الكهربائية. والصاعقة قد يصحبها صوت كما في الرعد لذلك يقرن القرآن بين الصيحة والصاعقة كثيراً. وممن أهلكه الله بالصاعقة من الأمم: ثمود وعاد ، كما سبق ذكرهما ، إذ قال الله تعالى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[٣].

وقد ذكر ابن أبى الدنيا في ذلك أثراً حيث قال :حدثنا عبد الله قال : حدثني إبراهيم قال : حدثنا موسى بن أيوب قال : حدثنا موسى بن شعيب قال سمعت عروة بن رويم اللخمي يقول : في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾[٤] قال : أخذت بعضهم وبعضهم قيام ينظرون فردت إليهم أرواحهم

١- الأعراف:١٥٥

٢ -راجع في ذلك لسان العرب لابن منظور ٢٤٥٠/٤ ، وقارن تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٥٠١.

٣-فصلت:١٣

٤- البقرة : ٥٥

ثم أخذت النصف الباقي وهؤلاء قيام ينظرون ثم تلا هذه : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1]

وقد ذكر الله تعالى في أكثر من آية أن بني إسرائيل قد أهلكهم الله بالصاعقة ثم أحياهم .

سادساً : الإهلاك بالرجم

الرجم من أكثر الوسائل فعالية في الإهلاك والتي استفادتها الإنسانية مما ذكره القرآن ، فصنعت المنجنيق، ثم تطور الأمر إلى القنابل التي تقذف بالطائرات والصواريخ التي عليها المعول الآن في ترجيح كفة الحروب وقهر الأمم والشعوب. وقد ذكر الله تعالى أنه أهلك بعض الأمم بالرجم لعل أشهرها في التاريخ الإسلامي قصة أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم الكعبة بيت الله الحرام فرد الله كيدهم برجمهم ، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ(٥) ﴾ [2].

١- البقرة : ، انظر ٥٦العقوبات،ص١٩٣

٢- الفيل:١-٥

وقد ذكر ابن أبى الدنيا في ذلك آثاراً منها[1] : - حدثنا عبد الله قال : حدثنا إسحاق ابن إسماعيل قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد بن عمير قال : (لما أراد الله تعالى أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيورًا نشأت من البحر بلقا- وهو ما فيه سواد وبياض - أمثال الخطاطيف- نوع من الطيور يسمى السنونو- كل طائر منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة : حجرين في رجليه وحجرا في منقاره ،قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما وقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ،ولا وقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديداً فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً)،وروى بسنده - حدثنا عبد الله قال : حدثنا إسحاق بن إسماعيل قال : حدثنا قبيصة عن سفيان عن الأعمش عن أبي سفيان عن عبيد بن عمير قال : (خرجت عليهم طيور سود بحرية في مناقيرها وأظافيرها الحجارة)،قال سفيان : أبابيل : العصب المتتابعة.

وممن أهلكوا بالرجم أيضاً قوم لوط الذين وصف القرآن حالهم بقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾[2] .

١- العقوبات،ص١٦٣،وانظر تفسير ابن كثير ٥٥١/٤

٢- هود:٨٢

سابعاً: الإهلاك بالخسف

والخسف هو ابتلاعُ الأرضِ الإنسانَ، وهو من العقوبات التي قلّ أمثالها في الواقع العملي حتى الآن. وقد ذكر القرآن أن الله تعالى أهلك بهذه الوسيلة أحد أكبر الطغاة من أصحاب الثروة في زمانه، لما تكبر وتجبر بسبب ما آتاه الله من نعمة ولم يحمد الله ولم يشكره عليها فخسف الله به الأرض وذكر قصته للناس عبرة وعظة، فقال تعالى:﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾[1] فرفض قارون نصيحة قومه:﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[2] . ثم قال تعالى:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[3].

وذكر ابن أبي الدنيا خبراً في ذلك[4] :- حدثنا عبد الله قال : حدثني العباس بن يزيد قال : حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا سعيد عن قتادة قال : (ذكر لنا أنه يخسف بقارون كل يوم قامةً يتجلجل فيها إلى يوم القيامة).

١- القصص٧٦

٢- القصص:٧٨

٣- القصص:٨١

٤-العقوبات،ص١٦٠

ثامناً: العقاب بالمسخ:

والمسخ هو التغيير في خِلقة الإنسان وتحويلها من الهيئة الإنسانية إلى هيئة أخرى. وقد ذكر الراغب الأصفهاني إنه قد يراد به القلب والتحويل في الخُلُق لا في الخِلقة[1]. كأنه يقصد بذلك أن ماجاء في القرآن من مسخ بعض الأمم كبني إسرائيل إنما المراد به تشويههم خُلقاً لا خِلقاً. ومهما يكن من أمر فإن القرآن قد نصّ على أن بني إسرائيل لما انتهكوا حرمات الله ونقضوا العهود مسخهم إلى قردة وخنازير، إما في طباعهم أو في خِلقتهم، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) ﴾[2]، وقال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ(٦٠) ﴾[3].

وهنا يروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنهما قال: أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أمن نسل اليهود هي ؟ فقال ﷺ:(إن الله عزّ وجل لم يلعن قوماً فمسخهم فكان لهم نسل حتى

---

١ -راجع: المفردات في غريب القرآن ، ص٦٨.

٢- البقرة :٦٥

٣- المائدة :٦٠.

يهلكهم ، ولكن هذا خلق الله كان ، فلما غضب الله عزّ وجل على اليهود مسخهم فكانوا مثلهم).[1]

و في كتابه العقوبات - حدثنا عبد الله قال : وحدثنا أبو خيثمة و إسحاق بن إسماعيل قالا : حدثنا جرير عن ليث عن علقمة بن مرثد عن المعرور بن سويد عن أم المؤمنين أم سلمة قالت : سألت رسول الله عمن يمسخ يكون له نسل ؟، فقال :(ما يمسخ أحد قط ويكون له نسل ولا عقب)[2].

فهذه هي جملة أصناف العقوبات التي حلت بالأمم السالفة بسبب تنكبها لسنن الله الشرعية والكونية ، سردها القرآن ودأب على ذكرها من خلال مختلف الآيات ، تذكيراً بمصير تلك الأمم وتحقيقاً للعبرة. ويجب أن لا تؤخذ هذا العقوبات على أنها مجرد قضايا أخلاقية ميتافيزيقية ، بل إنها تعتبر صورة عملية تعكس اضمحلال الحضارات وانهيارها. أما الأسباب التي أفضت إلى هذا العقوبات فشأنها عظيم ينبغي النظر إليها بالتفصيل من خلال الفقرة القادمة.

---

١ -ابن أبي الدنيا ، كتاب العقوبات ، دار ابن حزم (بيروت ١٩٩٦)ط١ ص١٥٧. والحديث أخرجه الإمام مسلم ،في كتاب القدر ،والإمام أحمد في مسنده ج٥١٣/١.

٢-العقوبات، ص١٥٨، والحديث رواه أبو يعلى الموصلي ' المسند ٤٠٣/١٢رقم٦٩٦٧، قال محققه إسناده ضعيف لضعف ليثبن أبى سليم ، وهو مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح.

أسباب الانحطاط الحضاري للأمم :

لم يعتبر أهل الحديث المسائل التي سيأتي ذكرها أسباباً للانحطاط وإنما جعلوها أسباباً لهلاك الأمم. ولكن لما كان لموت الأمم وهلاكها ، بخلاف الأفراد ، محامل متعددة: المادية منها والمعنوية فإن مفهوم " الانحطاط الحضاري " هو الذي سيحقق تلك المضامين بصورة أكمل وأفضل في نظرنا ، ومن هنا وقع الاختيار.

ذكر ابن أبي الدنيا كل هذه الأسباب بالروايات المأثورة ، بعضها مرفوعة إلى النبي ﷺ وأخرى موقوفة على الصحابة ، أو مجرد أخبار منقولة عن السلف الصالح. ولكن نكتفي هنا بالمرفوعة منها فلا نورد إلا ما جاء عن النبي ﷺ مسنداً. سواء كان تقريراً لسنة إلهية تأكيداً لما جاء في القرآن أو تفسيراً له ، وسواء كان تنبؤاً من النبي ﷺ لما سيحل بأمته من أسباب التراجع والانحطاط في بعض العصور. ويمكن حصر أسباب الانحطاط الحضاري للأمم كما ذكرها ابن أبي الدنيا في الأمور التالية:

أولاً: الفساد الاجتماعي والخُلقي والإداري

إن لفظ (الفساد) مفردة ذات مضامين واسعة تعم مخالفة سنن الله، والفطرة في العلاقات الاجتماعية الأسرية ،كعقوق الوالدين والخيانة الزوجية ، وفي أساليب التعامل بين الناس، من نقص الكيل والميزان والتطفيف فيهما. كما يشمل الفساد مخالفة سنن الله الشرعية في النواحي الأخلاقية الفردية ،كفشو الكذب وخيانة الأمانة، وشهادة الزور،

وغيرها. ولفظ الفساد يشمل أيضاً الفساد الإداري بدءاً من التكاسل عن أداء واجب المهنة كما ينبغي ،وسوء الإدارة ، والتعامل بالرشوة ، ونقض العهود على مستوييها المحلي والدولي وغيرها

وانتشار الفساد بهذه الصورة العامة يعتبر من أهم أسباب الانحطاط الحضاري وانهيار الأمم في نظر الإسلام ، لذلك قال تعالى:﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1]. وقال تعالى:﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إلا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[2].

ومن سنن الله في المجتمع والتى قررها الله عز وجل في كتابه العزيز ، أنه إذا انتقم من المفسدين عم ذلك ، المفسد وغيره ممن يشاركه الحياة ، يقول تعالى :﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[3] و إنما يحشرون إلى الله تعالى بحسب نياتهم ، حيث قال تعالى : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

١-البقرة:٢٠٥

٢-هود:١١٦

٣ - الأنفال : ٢٥

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[1]، فالراضى بالشر والفساد شريك لفاعله ، ويؤخذ بما يوخذ به من بأس الله ونكاله ومقيد بقوله تعالى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)[2] فترك الناهي للمنكر والفساد ، جعل الساكتين عن إنكار المنكر شركاء لأهل الفساد ، فنزلت عليهم جميعاً لعنة الله وحل بهم سخطه [3] .

ورد عن ابن أبي الدنيا في كتاب " العقوبات " بعض الأحاديث النبوية الدالة على أن الفساد بصوره المختلفة إنما هو سبب جوهري لانحطاط الأمم. فقد أورد بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:(ما طفّف قوم كيلاً ولا بخسوا ميزاناً إلا منعهم الله القطر – أي مصدر الزرق- ، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت ، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله تعالى عليهم الجنون ، وما ظهر في قوم القتل فقتل بعضهم بعضاً إلا سلط الله تعالى عليهم العدو ، وما ظهر في قوم عمل أهل لوط إلا ظهر فيهم

١- الأعراف : ١٦٥

٢- المائدة : ٧٨ ، ٧٩

٣ –عرجون ، محمد الصادق عرجون ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن (الدار السعودية للنشر والتوزيع)ط٣ ١٩٨٤ ص٤٦-٤٧

الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم)[1].

بصرف النظر عن كيفية فهم الارتباط بين هذه الظواهر الاجتماعية السلبية ونتائجها ، فإن صياغة الحديث تبيّن أن لكل ظاهرة فساد اجتماعي أو خُلقي .. الخ جزاء عاجلا في الدنيا يكون سبباً للانحطاط الحضاري سواء طالت المدة أم قصرت. وهذه حقيقة أيدتها نصوص مستفيضة من القرآن والسنة ، بل حتى الدراسات الاجتماعية الحديثة بينت أن هذه الأمور التي نصّ عليها الحديث هي أهم عوامل لتصدع الأمم واعتبرتها أمراضاً اجتماعية ينبغي مقاومتها والتخلص منها.

ثانيا: الترف والركون إلى متاع الدنيا

ليس المعنى بالترف هو مجرد الغنى ، وإنما هو الركون إلى الدنيا ومتاعها ونسيان الآخرة. وقد ربط القرآن فى العديد من آياته بين الترف وانهيار الأمم ، بل جعل المترفين دائماً في مقابل حملة الرسالة من الأنبياء والمصلحين من أهل الدعوة والتغيير في المجتمع ، مما يدل على أن الترف

١- العقوبات ، مصدر سابق ص٣٣. وأصل الحديث في سنن ابن ماجة ، كما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ماجة٣/٣٤٦-٣٤٧.

والدعوة أمران متقابلان سنة إلهية كونية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾[1].

وقد بنى ابن خلدون فكرته العامة في كتابه" المقدمة " على هذا الأساس وبيّن بالعديد من الأمثلة أن الترف سبب جوهري للانحطاط الحضاري للأمم وسقوط الدول. ومن أهم الآيات التي تبين هذه الحقيقة قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[2].

وقف كثير من المفسرين الأقدمين في تفسير الآية على لفظ (أَمَرْنَا) وأضاعوا كثيراً من الجهد في بيان ماذا يعنى فعل أمرنا هنا ؟ ، وهل يعنى ذلك سلب الإرادة أم لا ؟

أما ابن أبي الدنيا فقد تجاوز كل ذلك وتأمل في لفظ (نُهْلِكَ) نفسه ، فبيّن أن من سنة الله تعالى أن لا يقع الهلاك إلا بعد الإنذار والإعذار ، الأمر الذي يعنى أن فسق المترفين في القرية لا يعني الجبر ، وهو الأمر الذي يؤكده آخر الآية:﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾[3].

١- سبأ :٣٤

٢- الإسراء :١٦

٣- الإسراء :١٦

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن أبي البختري أن النبي ﷺ قال:(لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم). ولفظة (الهلاك) ينبغي أن تحمل على المعنى الواسع الذي تم تحديده في أول هذا الكلام. وقال ابن أبي الدنيا أيضاً حدثنا عبد الله قال: أخبرنا أحمد بن إبراهيم العبدي قال: حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس قال: سمعت سفيان الثوري يقول: قوله عز وجل:﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]،أي أغضبونا. ويقصد ابن أبي الدنيا من إيراد هذا التفسير أن الله تعالى وإن اقتضى عدله أخذ الناس بظلمهم فإن حكمته اقتضت ألا يأخذهم حتى يحق القول ، وهو ما أسماه الله تعالى بـ﴿ آسَفُونَا ﴾.

ثالثاً: الجهر بالسوء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن من أهم أسباب انحطاط الأمم واضمحلال الحضارات ظهور المعاصي والمنكرات الشرعية وشيوعها وانتشارها في المجتمع إلى درجة الجهر بها دون حياء ، مع سكوت الناس عن تغييرها. ذلك أن المعصية إذا صدرت من فرد وكانت خفية كان ضررها قاصراً عليه ولا يتعدى شرها إلى غيره ، أما إذا وصل الأمر إلى حد الجهر بالسوء والتظاهر بالفسوق على الملأ دون نكران من أحد ، فإن ذلك دليل قاطع على مستوى الانحطاط الذي وصل

١- الزخرف: ٥٥،انظر العقوبات،ص٥٩-٦٠

إليه المجتمع ، ومؤشر على الاضمحلال الحضاري للقوم ، كما حكي القرآن عن قوم لوط.

وقد أورد ابن أبى الدنيا أثراً في ذلك حيث قال[1]: - حدثنا عبد الله قال : حدثنا علي بن الجعد قال : حدثنا زهير بن معاوية عن الأعمش عن ميمون بن مهران عن عبد الله بن سيدان عن حذيفة قال : (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو لتقتتلن فليظهرن شراركم على خياركم فليقتلنهم حتى لا يبقى أحد يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ثم تدعون الله تعالى فلا يجيبكم بمقتكم.)

ومن هنا يتبيّن أن مهمة التصدى للمنكرات والسعي إلى تغييرها أمر واجب على الأمة أكدها القرآن كثيراً ، فقال تعالى:﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2] . وقال تعالى:﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ(٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ

١-العقوبات، ص٣٨، والأثر رواه الشجريفي الأمالي٢/٢٥٧ ، وأورده قريباً منه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٣٦

٢- الانفال:٢٥

فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] وكلمتا (معروف ومنكر) في هذا الموقع تحملان مضامين واسعة ، بحيث تشمل السعي لإحداث التغيير الاجتماعي إلى الأفضل ، وهو مهمة ولاة الأمر أساساً ،كما يشمل التصدي للظلمة والطغاة من قهرهم للشعوب واشعال الحروب.

في رأي ابن أبي الدنيا أن الأمر المعروف والنهي عن المنكر والمجاهدة في سبيل ذلك من أجوب واجبات الأمة. فهو يروي عن النبي ﷺ - عن عبد الله بن عمرو - قوله:(إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم أنك ظالم فقد تُودّعَ منهم)[2] . وروى أيضاً بسنده عن عبيد الله بن جرير عن أبيه ، عن النبي ﷺ قوله:(ما من قوم يكون بين ظهرانيهم من يعمل معاصي الله فقدروا على أن ينهوه ولم ينهوه إلا عمّهم الله عزّ وجل منه بعقاب)[3]. وكان ابن أبي الدنيا يسعى لتوجيه معاني الآيات التي يفهم

١- المائدة:٧٩

٢- -أحمد بن حنبل ، المسند ٣٣/١٤، والحاكم: المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ١٠٨/٤

٣ – أبي يعلى : مسند أبي يعلى : أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي الناشر : دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤،تحقيق : حسين سليم أسد

منها ما يفيد الانطواء على الذات وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد روى بهذا الخصوص عن قيس ابن أبي حازم إنه قال:(قرأ أبو بكر رضي الله عنه قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ(١٠٥) ﴾[1] ، ثم قال: إن الناس يضعون هذه الآية على غير موضعها ، ألا وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أو المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله عزّ وجل بعقابه).[2]

رابعاً: التباهي بالعلم والمعرفة وترك العمل

لعل من أهم أسباب انحطاط الأمم - مع أنه سبب خفي- التباهي والافتخار بكثرة تحصيل العلم دون عمل جدي يتبعه. فقد اهتم علماؤنا الأقدمون بقضية ارتباط العلم بالعمل. فالعلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، كما جاء عن النبي ﷺ ، ولكن لأمر ما غفل كثير من أبناء الأمة في هذا العصر هذا الجانب وسعوا إلى الزيادة من التحصيل المعرفي ، ربما في مجالات ليست حيوية ، دون أن تكون هناك خطط عملية لوضع المعلوم موضع التنفيذ ليفيد الأمة. فالله تعالى وإن قدم العلم فقد أتبعه بالعمل ،

١-المائدة:١٠٥

٢ -كتاب العقوبات ، مصدر سابق ص ٤٣ ، ٤٨- ٤٩.

لأن العمل بغير علم ضلال لا يؤدي إلا إلى الانحطاط والضياع ، فقال تعالى:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ(١٩)﴾[١]. وقال تعالى:﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ (١٠٥) ﴾[٢]. أدرك ابن أبي الدنيا أهمية هذا الأمر ، مع غفلة الناس عنه في كثير من الأحيان ، فأورد حديثاً أكد به هذا المعنى فقال:(حدثنا عبد الله قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم قال حدثني صالح المري ، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: إذا الناس أظهروا العلم وضيّعوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام ، لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم).[٣]

فكل هذه الأمور التي سردها ابن أبي الدنيا، مظاهر لعدم العمل بالعلم الذي جاء في أول كلامه ، وإلا فالعلم الشرعي يعلمنا رفض التباغض والتحاسد ووصل الرحم والتحاب في الله وليس بمجرد الألسن وإنما من القلوب.

١- محمد:١٩

٢- التوبة:١٠٥

٣ -المصدر السابق ، العقوبات ص٢٤. والحديث أخرج الإمام السيوطي في الدر المنثور (ج٦/٦٦) نقلاً عن ابن أبي الدنيا في كتابه (العلم).

هذه هي، بصورة مجملة ، الموضوعات التي تعرض لها ابن أبي الدنيا في كتابه " العقوبات" واعتبرها أسباباً لانحطاط الأمم وزوال الحضارات ، وقد أحسن الاختيار. ولكن هناك موضوعات أخري بهذا الصدد أغفلها ابن أبي الدنيا ولم يتطرق لها ، لعل أشهرها موضوع الظلم الذي هو من الأسباب المهمة للانحطاط الحضاري وفق نصوص الكتاب والسنة. فالظلم لا يقابله شيء أشد بشاعة في تدمير الأمم. وهو قد يكون ظلماً اجتماعياً ناتجاً عن عدم التوزيع العادل للثروة بين الناس، أو العنصرية البغيضة، وقد يكون ظلماً في هضم الحقوق ناشئاً عن فساد الجهازين القضائي والتنفيذي. ولكن الظلم بكل صوره رفضه القرآن على كل حال. قال تعالى:﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ (١٤٨) ﴾[1]. وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤) ﴾[2].

١- النساء:١٤٨

٢- يونس:٤٤

وفي الحديث القدسي ، روى أبو ذر عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل قوله:(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا).[1]

أي حرّمه الله على نفسه العلية على مقتضى سننه الكونية ، فلا يقع مطلقاً ، وحرّمه على عباده على مقتضى سننه الشرعية ، فأطاعه من أطاع وخالفه من خالف وظلم[2].

---

١ –مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (دار إحياء التراث العربي – بيروت)تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ١٩٩٤/٤ راجع شرحاً مفصلاً لهذا الحديث: شيخ الإسلام ابن تيمية ، مجموع الفتاوى: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم ، (طبعة مصورة سنة ١٩٨٩م)، مج١٨/ ص ١٣٦ وما بعدها . ونقل شيخ الإسلام هنا تعريفات للظلم عند الفرق الإسلامية المختلفة ، فقال بعضهم : الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وقال آخرون: الظلم إضرار غير مستحق ، وقال فريق ثالث: الظلم تصرف في ملك الغير ، وتعريفات أخرى. وعقّب ابن تيمية على هذا التعريف الأخير بقوله: فهذا ليس بمطرد ولا منعكس ، فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق ولا يكون ظلماً ، وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظلماً ، وظلم العبد نفسه كثير في القرآن) ، المصدر السابق ص١٤٥

٢ –راجع تفصيل ذلك في سنة الله في الظلم والظالمين (قانون الظلم) د . عبد الكريم زيدان ،السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشرعة الإسلامية ، مؤسسة

نتائج البحث

يظهر من العرض السابق بعض النتائج المهمة التي يخلص إليها البحث نجملها في الآتي:

أولاً: إن مفهوم (السنة) عند أهل الحديث مفهوم اصطلاحي وتعنى أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته ، إلى جانب صفاته الخُلقية والخِلقية. وهذا المفهوم للسنة قصد به أهل الحديث توسيع دائرة الاحتجاج بالمنقول في مقابل المعقول نظراً للظروف التاريخية التي تعلقت بالصراعات الفكرية التي احتدمت بين الفرق الإسلامية. ولكن توسيع هذه الدائرة وإن أفاد أهل الحديث في الرد على الخصوم بالمأثور من الكلام فقد أضر بالمسلمين من جانب آخر عندما أضيفت إلي الروايات الصحيحة روايات واهية ألقت بظلالها القاتمة على الأحاديث التي تتعلق بالسنن الإلهية وجمعت تحت أبواب (الفتن). وهذه العملية قللت من الدور المعرفي للسنة النبوية في المجال العلمي عامة ، والسنن الإلهية خاصة ، مع أن السنة النبوية هي المنطلق الصحيح لدراسة السنن الإجتماعية.

الرسالة بدون تاريخ . إبرهيم شوقار في رسالته(السنن الإلهية في القرآن الكريم) مصدر سابق. ص١٢٠.

وهكذا نشأ المفهوم الاصطلاحي للسنن عند أهل الحديث وترعرع بعيداً عن المفهوم القرآني الذي به أخذت لفظة (السنة) بُعدها الكوني بإضافتها إلى لفظ الجلالة فغدت (سنة الله) تعكس المنهج المعرفي في الإسلام.

ومن هنا تأتي ضرورة نداء أهل الاختصاص ببذل المزيد من الجهد لتنقية وتصفية أحاديث السنن الإلهية ، التي عُرفت بأحاديث (الفتن) مما علق بها من دخيل لتكون منبعاً صافياً للمعرفة ، لا سيما في مجال السنن الاجتماعية.

ثانياً: يظهر جلياً من العرض السابق أن الحديث النبوي الصحيح يدعم البعد الكوني لمفهوم (السنة) الذي جاء به القرآن من خلال مستويين:

المستوى الأول : مستوى المنهج النبوي العملي ، أي من خلال سلوك النبي ﷺ وممارساته العملية تجاه المنهج المعرفي في الحقائق الكونية. كتحريمه كل المناهج الباطلة التي تعيق البحث العلمي وتقف حائلاً دون إدراك المنهج العلمي الصحيح ، مثل السحر والشعوذة والطيرة وتفسير الظواهر بطرق خاطئة بإضافتها إلي غير أسبابها الحقيقية كما في واقعة كسوف الشمس في يوم وفاة ابنه إبراهيم.

والمستوى الثاني: تقرير حقائق تتعلق بنظم المجتمع البشري قولاً من حيث بيان أسباب نهوض الأمم ورقيها أو انهيار الحضارات واضمحلالها كما تبيّن من الأحاديث المختارة التي تمت دراستها من خلال كتاب "العقوبات" لابن أبي الدنيا. هذا رغم الأثر السيئ الذي لحق بالسنة النبوية كمصدر للمعرفة عامة والأحاديث المتعلقة بالسنن الكونية خاصة ، من جراء الروايات الواهية عن الكون والحياة التي اُقتبستْ من أهل الكتاب ووضعت إلي جانب الروايات الصحيحة تحت أبواب (الفتن).

ثالثاً: أورد القرآن والسنة النبوية على حد سواء بعض العقوبات التي حلت بالأمم السابقة تحقيقاً للعظة والعبرة ، لأنها سنن مطردة في المجتمع البشري. وقد لخص القرآن أهم تلك العقوبات في ثمانية أصناف وجعلها من أهم وسائل إهلاك الأمم وهي: الإهلاك بالغرق وبالريح وبالصيحة وبالرجفة وبالصاعقة وبالرجم وبالخسف وبالمسخ.

وقد اهتدى الإنسان بفضل ما ذكره القرآن إلى بعض هذه الطرق وجعلها من الوسائل الفعّالة في ترجيح كفة الحروب وقهر الشعوب ، مثل

وسيلة الرجم التي أهلك الله بها قوم لوط وأصحاب الفيل ، حيث تعلم منها الإنسان صنع الصواريخ والقنابل التي تقذف بالطائرات.

رابعاً: إن من أهم أسباب الانحطاط الحضاري وفق ما جاء في السنة النبوية، وهي مفسرة للقرآن الكريم الآتي:

الفساد الشامل الذي يعم المجتمع اجتماعياً وخُلقياً وإدارياً. والترف بمتاع الحياة الدنيا والركون إليها. والجهر بالسوء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والتباهي بالعلم مع ترك العمل. وأخيراً الظلم البيّن الذي يفضي إلى الخلل في التوزيع العادل للثروة الوطنية ويجعلها في يد القلة فيخضع مصير سواد الأمة بها ، هذا إلى جانب الظلم القضائي، والجهل الاجتماعي في التفاضل بالأحساب والأنساب.

هذه جملة ما وفقنا الله تعالى على ذكره في موضوع السنن الإلهية عند أهل الحديث من خلال كتاب العقوبات للإمام ابن أبي الدنيا ، وندعو الله تعالى أن يجعله عملاً نافعاً متقبلاً، وخالصاً لوجه الكريم .وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

مراجع البحث

١- أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي الناشر : دار المأمون للتراث – دمشق الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، تحقيق : حسين سليم أسد

٢- شوقار ،إبرهيم شوقار (السنن الإلهية في القرآن الكريم). وهي رسالة دكتوراه غير منشورة (الجامعة اللإسلامية العالمية ماليزيا ، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية ، قسم دراسات القرآن والسنة)٢٠٠٣م.

٣- شيخ الإسلام ابن تيمية ، مجموع الفتاوى: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم ، (طبعة مصورة سنة ١٩٨٩م)

٤- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد، العقوبات، دار ابن حزم (بيروت١٩٩٦م)ط,١

٥- ابن أبي الدنيا ، قصر الأمل ، أبو بكر محمد بن أبى الدنيا ، تحقيق : محمد رمضان يوسف ، دار ابن حزم : بيروت ط١ ١٩٩٥ .

٦- ابن أبي الدنيا ، الصبر ، تحقيق محمد رمضان يوسف ، دار ابن حزم : بيروت ط,١٩٩٥

٧- الزحيلي ، وهبة ، المحرمات وأثرها السيئ على المجتمع ،(دار المكتب دمشق) ط١ ، سنة ١٩٩٩م

٨- سيلا ، سعيد محمد بابا، أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، مجلة الحكمة (ليدز- بريطانيا ٢٠٠٠م).

٩- تليدي، الشيخ عبد الله ، أسباب هلاك الأمم ، دار البشائر (بيروت ١٩٨٦م)ط,١

١٠- حسونة الدمشقي ، الشيخ عرفان بن سليم العشّا ، جامع المهلكات من الكبائر والمحرمات ، دار الكتب العلمية (بيروت م٢٠٠١)ط,١

١١- زيدان ، عبد الكريم زيدان ،السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية،(مؤسسة الرسالة بيروت بدون تاريخ).

١٢- الأصفهاني ، الراغب ، مفردات غريب القرآن .- دار المعرفة (بيروت- بدون تاريخ).

١٣- الصواف، محمد محمود، أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب ، مؤسسة الرسالة (بيروت ١٩٨٦م).

١٤- عبد الخالق ، عبد الغني ، حجية السنة ، دار القرآن الكريم (بيروت ١٩٨٦م) ط

١٥- عرجون،محمد الصادق عرجون ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن (الدار السعودية للنشر والتوزيع)ط٣ ١٩٨٤ م

١٦- العودة ، سليمان فهد ، من وسائل دفع الغربة، دار ابن الجوزي(الدمام م١٩٩٢) ط١

١٧- الغمراوي، محمد أحمد، في سنن الله الكونية، مطبعة لجنة التأليف (القاهرة ١٣٥٥).

١٨- القرضاوي ، يوسف ، المدخل لدراسة السنة النبوية ، مكتبة وهبة (القاهرة ١٩٩٢م) ط٣

١٩- مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، (دار إحياء التراث العربي – بيروت)،تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي

http://www.islamweb.net/newlibrary/showalam.php?ids.=12455